

# أحمد شوقي

أحمد شوقي - باختصار - ولد في القاهرة، في النصف الثاني من القرن الماضي (عام ١٨٦٨ م)، وقد انتفى والده ووالدته إلى البيئة المصرية الخالصة، التي كانت تزخر بالمظاهر الإسلامية والعادات التي تضرب في أعماق المعاملات والعادات الدينية إلى حد بعيد..

غير أنه - بالرغم من أنه قاهري المولد والمنشأ، فإن الأب والأم لم يخرجوا من مصر، برغم أنهما كانا ينتميان في الأصول البعيدة إلى أجداد تلتقي فيهم أصول كثيرة: أتراك وعرب ويونان وجركس، غير أنهم جميعا كانوا ينتمون إلى أرومة الإسلام في المقام الأول، تعددت الأجناس وتوحد الانتماء الديني. وفي هذا المناخ نشأ الفتى وترعرع؛ سواء في مدرسته الابتدائية، والمراحل التالية أو أثناء دراسته للقانون في مصر قبل أن يرحل للغرب، ليكمل دراسته، حتى عاد ثانية عام ١٨٩٣ م إلى مصر..

أحمد شوقي، شاعر العربية الكبير في العصر الحديث، أكثر شعرائنا ميلا للإسلام، ونظما فيه، كما يحتوي شعره، على خصائص إسلامية ناضجة وواعية أكثر من غيره..

هذه حقيقة يؤكدها شعر أحمد شوقي ومسرحه الدرامي سواء بسواء. ولا يمكن أن نراجع شعر أحمد شوقي دون أن نلاحظ هذا التأثير الكبير بالروح الديني، إذ يكاد عنصر الإسلاميات يغلب على هذا الشعر، سواء جاء التعبير الفني مباشرا أو غير مباشر، وفي كتاباته الذاتية أو مناسباته في شتى الميادين، وهو ما لا يمكن إغفاله بأية حال..

ولم يلحظ هذه الحقيقة معاصروننا نحن أو كتابنا، وإنما من عرف أحمد شوقي عن قرب، إذ تقول بعض الروايات: إنه كان يفضل (شاعر الإسلام) على اللقب الذي أطلق عليه في مؤتمر أو اجتماع أقيم خصيصا له، وهو لقب أمير الشعراء، إذ كان صاحب مجلة (المعرفة) في عصره يقدم قصائده بعبارة (شاعر الشرق والإسلام)، فلما التقى بشوقي فيما بعد تهلل وجهه وقال له:

(إن قولك عني إني شاعر الإسلام لأحب إلي من هذا اللقب الرنان الذي يطلقه الصحفيون عليّ، ذلك أنني أتمنى أن أكون شاعر الإسلام حقا) (١).

غير أننا لا نستطيع أن نتحدث عن (إسلاميات أحمد شوقي) دون أن نتمهل قليلا حول شخصه، وعصره، فضلا عن بعض هذه المؤثرات الدينية التي صاغت وجدان الشاعر.



د. مصطفى عبدالغني\*

## ● لا تكاد تخلو قصيدة لديه من مؤثرات إسلامية في الدلالة اللفظية أو المعنى

يكن ليترك مناسبة أو حادثاً دون أن يستفيد منه لتأكيد هذا الجانب، ففي أثناء الاحتفال بمناسبة أحد الأعوام الهجرية الجديد، قال بعد مقدمة عامة: (٤)

هذا هلالكم تكفل بالهدى

هل تعلمون مع الهلال ضلّالا

صوت الحضارة حقبة في ضوئه

ومشى الزمان بنوره مختالاً

وبنى له العرب الأجواد دولة

كالشمس عرشاً، والنجوم رجالاً

رفعوا له فوق السماك دعائماً

من علمهم ومن البيان، طوالاً (٥)

ويلاحظ هنا بالطبع أن أحمد شوقي

يقصد (بالحلال) في تصويره البالغ الدين

الإسلامي، فالمعروف أن الهلال هو الرمز

الديني له.

وإسلاميات أحمد شوقي تتنوع وتعدد،

إذ أن أغلب شعره يغلب عليه الجانب

الإسلامي، وحتى حين كان يتحدث في

الوطنيات، أو يهاجم المستعمر، كان انطلاقه

في المقام الأول، من العقيدة، وعوده إليها..

ولمراجعة أشعار أحمد شوقي نجد أنه

توزع بين عديد من الجهات، فإسلامياته

تمهلت عند العبادات والشعائر، وأيضاً

تحددت أكثر عند المبادئ النبوية.

وكذلك، كان لا يدع فرصة أو مناسبة

دينية إلا وينظم فيها ليرينا كيف كان

واقفنا الرديء في إطار الماضي

الحضاري المزدهر والمنيف. (٦)

### صوت الشعائر

كان صوت الشعائر لدى أحمد شوقي

أعلى الأصوات على الإطلاق، إذ يذكر كثيراً

من الأبيات المفردة في قصائده الكثيرة،

ليدل على أهمية الصلاة، يقول:

خفافاً إلى داعي، سراعاً كأنما

من الحرب داع للصلاة مشوب (٧)

كما يضيف إلى الصلاة بقية الشعائر،

فيقول في موضع آخر:

وصل صلاة من يرجو ويخشى

وقبل الصوم صم عن كل فحش (٨)

شوقي أهم الرموز التي واجهت هذا المناخ الرديء، ومن ثم توالت نتاجاته الشعرية الدينية في شتى الاتجاهات وفي شتى المناسبات، في هذه الفترة يلاحظ د. أحمد الحوفي أن شوقي كان حفيًا بدينه إذ سابر كل الأحداث (٢).

نستطيع أن نجد أحمد شوقي الشاعر

الإسلامي المجيد حين خص قصيدته

الطويلة العصماء (كبار الحوادث في وادي

النيل) عام ١٨٩٤م ليؤرخ للمجد

الإسلامي، إذ كانت البلدان الإسلامية

تعاني من ضراوة الغرب الذي كان في

سبيله للسيطرة على هذه البلدان، ومن هنا،

فإن تاريخه هنا كان بمثابة أن يجعل أبناء

عصره يرون الحاضر الرديء في مرآة

الماضي الإسلامي المشرق، وهي قصيدة

طويلة جداً تحتاج إلى وقفات طوال.

وقد راح بعد ذلك ينظم في مناسبات

عديدة، كما راح يتغنّى بمجد الخلافة

العثمانية على اعتبار أنها رمز للحضارة

الإسلامية، قبل أن تسقط هذه الخلافة

فيرثها خير رثاء، كما لم ينقطع شعر

شوقي عن الأغراض الدينية، فله العديد من

القصائد في الإيمان بالله، وفي التذكير

بفضل الرسول ﷺ، وفي الإشارة الدائمة

لمعجزة القرآن الكريم والحكومة الشورية

وسماحة الدين الإسلامي وما إلى ذلك..

وكثرة الكتابات عن الإسلاميات في شعر

شوقي جعلت كثيراً من الباحثين

والدارسين يؤكدون "أن هذا التيار

الإسلامي الذي ظهر في شعر شوقي بهذه

الوفرة لم يظهر عند غيره من شعراء

عصره" (٣)، وهو ما جعله يؤثر في

المدرسة الإصلاحية التي سبقته بقليل

(وأهم روادها جمال الدين الأفغاني ومحمد

عبد) ثم عاصرته وواصلت بعده على يد

أمثال الشيخ مصطفى عبدالرازق والشيخ

المرافي.

وأكثر ما كان يميز شعر أحمد شوقي أنه

لم يكن نظماً باهتاً أو مقلداً، وإنما كان داعياً

للصحة، واليقظة إلى مجد الإسلام، ولم

وقد سيطرت خلفيته الدينية على فكره ونظمه وسلوكه، فكان يهتبل أية فرصة ليذود عن الإسلام وأبنائه، حتى عرف، منذ فترة مبكرة بأنه شاعر الإسلام.

وقد عاصر أحمد شوقي فترة مهمة من فترات تطور العالم الإسلامي، فاندمج فيها بالإيجاب، وحاول أن يعبر عن همومه الوطنية في إطار إسلامي خالص.

### عصر التحديات

ونستطيع أن نطلق على الفترة التي عاش

فيها أحمد شوقي عصر التحديات، إذ كانت

التحديات التي واجهت المنطقة الإسلامية

من الجسامة بحيث راح الفكر الإسلامي

يستعيد فتوته مرة أخرى للرد عليها.

فما صورة هذا العصر؟

في النصف الثاني من القرن الماضي

كانت تركيا دولة الخلافة الإسلامية تعاني

من ويلات التطور وهجمات الغرب، فراحت

هذه الإمبراطورية التي سيطرت على العالم

الإسلامي لقرون تهبط من عليائها قليلاً،

فشهدنا سقوط الجزائر في يد فرنسا، وما

لبث أن سقطت تونس في يد فرنسا أيضاً

عام ١٨٨١م، وجاءت إنجلترا لتحتل وادي

النيل كله (مصر والسودان) عام ١٨٨٢م،

وتتابعت مناطق النفوذ، لتقع مراكش في يد

الفرنسيين منذ عام ١٩٠٤م، وتحتل

إنجلترا مناطق إسلامية أخرى بعيدة، ثم لا

تنسى إيطاليا نصيبها من الغنيمة فتحتل

طرابلس عام ١٩١٢م، ليمتد الاستعمار

الغربي إلى بقية أجزاء العالم الإسلامي.

وما لبث أن أضيف إلى عصر الاستعمار

التخلف الذي سقطت فيه الولايات

الإسلامية، ففي حين كان الغرب يوالي

انتصاراته الحضارية، كانت الدول

الإسلامية تزرع تحت كابوس الجهل

والفقر والتخلف، مما مثل هزيمة أخرى

للأمة الإسلامية..

الملاحظ أنه في عصر التحدي الغربي

ظهرت - في المقابل - حالة الاستجابة من

الإسلام، حتى إنه يمكن القول إن هذه

الفترة التي تتحدد بنهاية القرن التاسع

عشر وبداية القرن العشرين هي فترة

العصر الإسلامي المتمرد على القوى

المعادية.

وفي هذا اليم المضطرب كان أحمد

ويضيف إلى ذلك كله عنصر (الحج)، فلا يكتفي بالكلام المقرر، أو التشبيهات المكررة، وإنما يبرع في رسم عديد من الصور الفنية، إنه في قصيدة بعنوان (إلى عرفات) قالها بمناسبة حج الخديوي توفيق، يقول:

إلى عرفات الله يا خير زائر  
عليك سلام الله في عرفات  
ويوم تولى وجهة البيت ناظرا  
وسيم مجالي البشر والقسمات  
على كل أفق بالحجاز ملائكا  
تزف تحايا الله والبركات (٩)

#### الدين والحاكم

ويلاحظ البعض أن شوقيًا يربط بين أركان الإسلام والخليفة العثماني، فكما تمسك الحاكم بالإسلام، كانت قوته ونصره، فشخص الخليفة عنده «يبدو رجل دين ودولة في آن واحد، قادر على إجابة التدبير السياسي للحكم، ومحققا المثل الأعلى والقُدوة الطيبة لشعبه، من خلال العبادات وأداء الفرائض وإقامة الشعائر، ولذا نلاحظ أن شعر شوقي المدحي عبارة عن لوحات تصويرية، تجمع بين القيادة والعبادة، لم يكن نجاح الخليفة في قيادته إلا نتيجة طبيعية لتمسكه بالشعائر. بل إن تبني قضايا الدين والدفاع عنها تتمثل في قدرة الخليفة على أداء هذه الشعائر والدفاع عن الإسلام» (١٠).

غير أن إسلاميات أحمد شوقي تظهر أكثر في المداخل النبوية.

#### المداخل

وأحمد شوقي جوانب إسلامية أخرى، لعل من أهمها المداخل النبوية، تلك المداخل التي كانت تطول حتى تصل إلى (كم) شعري هائل..

وتعود أهمية المداخل بوجه خاص إلى أنها كانت تتجه إلى الرسول (عليه الصلاة والسلام) بكل ما في شخصيته من عظمة وقُدوة حسنة ورجاء منشود.

غير أن الملاحظة التي يجب أن نشدد عليها هنا، أن الممدوح - الرسول ﷺ - كانت تتوافر فيه سمات الدنيا والدين، وبذلك، فما يجدر ملاحظته هنا أن المداخل لم تكن تركز على الجانب الديني وحده،

وإنما، أيضا، على الجانب الآخر - السياسي - على اعتبار أن الرسول ﷺ ممثل الدنيا والدين، وعلى ذلك، فإن مديح الرسول ﷺ - فضلا عن تعظيمه - كان يحتوي على كثير من أمور الحياة والحكم، إنه حين يشير في إحدى هذه القصائد إلى ميلاد الرسول والظواهرات التي وضحت في الكون حينئذ، يضيف إلى ذلك كله معاني جديدة، يقول:

وحماها غر كرام أشداء  
على الخصم بينهم رحماء  
أمة ينتهي البيان إليها  
وتؤول العلوم والعلماء  
تحمل النجم والوسيلة والميزان  
من دينها إلى من تشاء  
وتنيل الوجود منه نظاما  
هو طيب الوجود وهو الدواء (١١)

#### شوقي والبوصيري

ومن أهم إسلاميات أحمد شوقي على الإطلاق تبرز (البردة) القصيدة التي نظمها على غرار قصيدة الشاعر الإسلامي القديم البوصيري، فعلى طريقة البوصيري في افتتاحيته المشهورة، يقول أحمد شوقي:

ريم على القاع بين البان والعلم  
أحل سفك دمي في الأشهر الحرم  
رمى القضاء بعيني جؤذر أسدا  
يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم  
ولا يلبث أن يقترب أكثر من مدح الرسول ﷺ:

فاق النبيين في خلق وفي خلق  
ولم يدانوه في علم ولا كرم

وكلهم من رسول الله ملتصق  
غرفا من البحر أو رشفًا من الديم  
ويلاحظ أن محاكاة شوقي للبوصيري تصل إلى حد بعيد، إلى درجة التوسع في خصال الرسول وتبيين مكانته عند الله بكل فخر وخير، كما يتبعه في تسلسل الأحداث للوصول منها إلى العبرة، وقد بدا واضحا اهتمامه خاصة بتشبيه الرسول ﷺ بالعلم وإن بدا التشبيه عند شوقي يتخذ شكل المقتدي به، وشبهه بالبدر في شكل أكثر وضوحا، لنقرأ:

أسرى بك الله ليلا، إذ ملائكة  
والرسل في المسجد الأقصى على قدم  
لما خطرت به التفوا بسيدهم

#### كالشهب بالبدر، أو كالجند بالعلم

أما (الهمزية النبوية) فيصل فيها شوقي إلى درجة عالية في المدح النبوي، ويلاحظ أن البوصيري وشوقي يتفقان في الأغراض، والاتفاق هنا في وحدة الموضوع لا يخفى. ولكن شوقي يختلف عن البوصيري بمثل ما اختلف عنه في أشياء أخرى إذ يختص بالحديث المستفيض حول خصائص الإسلام، وحكمه ومنهجه في سبيل الإصلاح. ولا بأس أن محاكاة شوقي للبوصيري تجاوز المديح إلى الصور والموسيقى والوزن والقافية والعبارة والتراكيب، كذلك في الأغراض وفي التأثر بالقرآن، وما إلى ذلك من صور المدح والشفاعة..

وهذه المعاني لا تكثر في (البردة) و(الهمزية) فقط، بل تمتد إلى عديد من قصائده الأخرى في هذا المجال، وهو ما يتأكد أكثر في شعر المناسبات في الإسلام.

#### معنى المناسبات

وقد تبدت إسلاميات أحمد شوقي بشكل بالغ الثراء في المناسبات. والمناسبة هي «قيمة تتبع من العقيدة. وتمتد إلى الأخلاق والسلوك، وهي إحياء لتاريخ أو حدث مؤثر، مستمر التأثير. ومن هنا يأتي اهتمام الشاعر ويتحدد إطار عمله الشعري، إنه عادة يتجه إلى إحياء الظل، وإعلاء القيمة، وتأمل المغزى» (١٢)، فالمناسبة الدنيوية تتحول إلى مناسبة دينية في الإسلام: كمولد النبي ﷺ، وبداية العام الهجري وغزوة بدر الكبرى. كما تهتم ببعض سلوكيات الرسول ﷺ في الجانب الديني، كذلك هناك اهتمامات أخرى ترتبط بمعنى المناسبات كشهر الصوم أو فريضة الحج.. إلى غير ذلك.

ومن المناسبات التي برع فيها شوقي، مناسبة الهجرة وفصل الحديث عنها باصطحاب الرسول ﷺ لأبي بكر، فضلا عن الإشارة لشجاعة الرسول ﷺ والإقدام على التخفي ليلا، والإشارة إلى دخول الرسول والصديق إلى الغار، يقول:

هاجر من أم القرى مأذونا  
وما درى أو سمع المؤذونا  
في ليلة للخلت كانت موعدا  
قد نصبته شركاً أيدي العدا



## ● وصل شوقي إلى درجة عالية في المدح في «الهمزية النبوية»

## ● تركت محام شوقي على الجانبين الدنيوي والأخروي في حياة الرسول الكريم

فإن معجمه الشعري زاخر بالبناء الدلالي القرآني والتحليل الفاحص للمعاني من تكرار ومقابلة وأمر ونداء.. إلى غير ذلك. وعلى ذلك النحو، لم يحظ شاعر معاصر بما حظي به شوقي من اهتمام الكتاب والنقاد، وهو ما يعود إلى اهتمامه البالغ بأغراض كثيرة، وفي مقدمتها الإسلامية حتى لا تكاد تخلو قصيدة لديه من مؤثرات إسلامية سواء في الدلالة اللفظية أو دلالة المعنى، وسواء في النزعة الإسلامية المباشرة أو غير المباشرة.

\* ناقد ومؤرخ وكاتب بالأهرام.

تمتد إلى أبعد من ذلك، إذ يبدي براعة فائقة في معارضاته لكبار الشعراء، بما يثري الشكل الشعري، كذلك يقوم باستيحاء الكثير من صور الموروث الديني والموروث التاريخي، بما يؤكد المعنى العام، الأكثر من ذلك، وهو ما يحتاج إلى دراسة أخرى - إن إسلاميات شوقي تزخر بتأثره البالغ بالثقافة القرآنية والدينية، من تضمنين آيات القرآن الكريم والتأثر بالقصص القرآني خاصة، أيضاً، الإفادة من الصور الدينية باستغلاله لصور الطبيعة في التعبير الإسلامي فضلاً عن القيم الدينية والمصطلحات الإسلامية وما قام بصياغته من مصطلحات إسلامية خاصة به، وأيضاً،

انتمرت في الندوة الأعيان  
وانتدبت للفتكة الفتيان  
وقعدوا ناحية كميننا  
ليغفدروا في داره الأمينا  
ويقول في موضع آخر:

وسار في ركابه الصديق  
وفي البلاء يعرف الصديق  
وأهمية هذه المناسبات لا تعود إلى مظهرها العام، وإنما إلى معانيها التي توحى بها، وهي التضحية من أجل العقيدة والبذل والفداء «وهي معان يمكن الإفادة منها في هذه الظروف القاسية التي تمر بها الأمة العربية، وهو ما يبدو واضحاً في بيت شعر مثل هذا:

ما أجل الهجرة بالأحرار  
إن ضنت الأوطان بالقرار  
وفي مرة أخرى يقول ما يزخر من المعاني:

فكانت الحرب لدفع الحيف  
قد يؤخذ السلم بحد السيف  
وكان (بدر) مطلع الأيام  
ورفعة الصلاة والصيام  
وأول العهد بعز الملة

وبارتداء المشركين الذلة  
ويسهب شوقي طويلاً في قصة مثل قصة (الإسراء والمعراج)، ليربط بين المناسبة الدينية والمعاني التي تثيرها الآن في وجدان المسلم، يسهب في مناسبات دينية أخرى وفي مقدمتها شهر رمضان، وآثار الزكاة فيه: وتحذير الأغنياء من ظلم الفقراء، بل يصور ضيقه الشديد بالشح والبخل داعياً إلى البذل، كما يتضح في مثل هذه المناسبات الفكر الاجتماعي الناضج، فهو في إحدى قصائده في هذا المجال يدعو الأغنياء لبذل أموالهم كدعوة للعدالة الاجتماعية، يقول:

عجبت لمعشر صلوا وصاموا  
ظواهر خشية وتقى كذابا  
وتلفيهم حيال المال ضمّاً  
إذا داعي الزكاة بهم أهابا  
لقد كنتموا نصيب الله منه  
كأن الله لم يحص النصابا  
ومن يعدل بحب الله شيئاً

كحب المال ضل هوى وخابا  
وإسلاميات أحمد شوقي لا تتوقف عند حد المضمون أو إبراز المعاني وحسب، وإنما